مالك بن نبي

إنتاج المستشرقين

وأثره في الفكر الإسلامي الحديث

مكتبة عمار
للطباعة والنشر والتوزيع
١٣ شارع الجمهورية ـ امام مسرح الجمهورية
ص. ب ١٣٦٤٣٨ القاهرة

إهـــــداء2005

أ/إبراهيم منصور غنيم

القاهرة

إنتاج المستشرقين

مالك بن نبي

إنتاج المستشرقين

وأثره في الفكر الإسلامي الحديث

مكتبة عمار
للطباعة والنشر والتوزيع
[illegible]
[illegible]
ت : ٩٢٠٧٩٤

تنبيه

يصحب هذه الدراسة، في الطبعة الفرنسية، مقدمة أوضحت بها الظروف الخاصة بالصراع الفكري في هذه الحقبة

وكان بودنا أن تصدر الطبعة العربية بنفس المقدمة، غير أنها لم تكن تحت أيدينا مترجمة في الوقت الذي نقدم فيه هذه الصفحات للطبع، فإننا نلتمس معذرة من القارئ العربي، وعسانا نتفادى هذا النقص في طبعة ثانية

القاهرة في /٣/١٩٧٠ المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

يجب أولا أن نحدد المصطلح : إننا نعنى بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامى وعن الحضارة الإسلامية .

ثم علينا أن نصنف أسماءهم فى شبه ما يسمى « طبقات على صنفين :

— من حيث الزمن : طبقة القدماء مثل جربر دورياك والقديس توماس الا كوينى وطبقة المحدثين مثل كاره دوفو وجولدتسيهر .

ب — من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتابتهم : فهناك طبقة المادحين للحضارة الاسلامية وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها .

هكذا وعلى الترتيب يجب أن تقوم كل دراسة شاملة لموضوع الاستشراق ، إلا أننا ، من الوجهة الاجتماعية الخاصة التى تهمنا فى هذا البحث وفى النطاق الضيق المحدد لهذه السطور ، نختار عن قصد فصلا خاصاً ، إختياراً تبرره مبررات إلغائنا للفصول الأخرى .

إنه لمن الواضح أن المستشرقين القدماء أثروا وربما لا يزالون يؤثرون على مجرى الأفكار فى العالم الغربى، دون أيما تأثير على أفكارنا ، نحن معشر المسلمين ، إن ما كتبوا كان قطعاً المحور الذى تحركت حوله الأفكار التى نشأت عنها حركة النهضة فى أوربا ، بينما لا نرى لهم أى أثر فيما نسميه النهضة الإسلامية اليوم . فلنترك إذاً قضيتهم جانباً لمن تهمه دراسة التاريخ العام كما نترك أيضاً قضية المنتقدين على الحضارة الاسلامية المحدثين حتى ولو كان لهم بعض الأثر فى تحريك أقلامنا أو كان لهم بعض الصيت فى زمنهم وبلادهم مثلا الأب لامانس ، إنهم لا يدخلون فى موضوع بحثنا لأن

إنتاجهم ، على فرض أنه مس ثقافتنا إلى حد ما ، إلا أنه لم يحرك ولم يوجه بصورة شاملة مجموعة أفكارنا ، لما كان فى نفوسنا من استعداد لمواجهة أثره تلقائياً ، مواجهة تدخلت فيها عوامل الدفاع الفطرية عن الكيان الثقافى ، كما وقع ذلك فى العهد الذى نشر فيه طه حسين كتابه فى الشعر « الجاهلى » على غرار ما تقتضيه مسلمة قدمها المستشرق مرجيلوث قبل سنة من صدور كتاب طه حسين الذى أثار تلك الزوبعة من السخط التى تخللتها الصواعق المنطلقة من قلم مصطفى صادق الرافعى رحمه الله وأكرم مثواه .

ولكننا على عكس ذلك نجد للمستشرقين المادحين الأثر الملموس الذى يمكننا تصوره بقدر ما ندرك أنه لم يجد فى نفوسنا أى استعداد لرد الفعل حيث لم يكن هناك ، فى بادىء الأمر ، مبرر للدفاع الذى فقد جدواه وكأنما أصبح جهازه معطلاً لهذا السبب فى نفوسنا .

وموضوعنا هنا ، هو أن نبين ما كان لهذه الثغرة

فى جهازنا للدفاع عن الكيان الثقافى ، من أثر فى تطور أفكار المجتمع الإسلامى منذ قرن ، وأثناء هـذا القرن العشرين على وجه الخصوص .

ولا شك أن المستشرقين المادحين مثل رينو الذى ترجم جغرافية أبى الفداء فى أواسط القرن الماضى ومثل دوزى الذى بعث قلمه قرون الأنوار العربية فى إسبانيا ومثل سيديو الذى جاهد جهاد الأبطال طول حياته من أجل أن يحقق للفلكى والمهندس العربى أبى الوفاء لقب المكتشف لما يسمى فى علم الهيأة « القاعدة الثانية لحركة القمر » ومثل آسين بلاثيوس الذى كشف عن المصادر العربية للكوميدية الإلهية ، لا شك أن هؤلاء العلماء كتبوا لنصرة الحقيقة العلمية ، وللتاريخ ، وكل ذلك من أجل مجتمعهم الغربى .

ولكننا نجد أن أفكارهم كان لها وقع أكبر فى المجتمع الإسلامى ، فى طبقاته المثقفة .

إن الجيل المسلم الذى أنتسب إليه يدين إلى هؤلاء

المستشرقين الغربيين بالوسيلة التى كانت بين يديه لمواجهة مركب النقص الذى اعترى الضمير الإسلامى أمام ظاهرة الحضارة الغربية .

ولكننا إذا تصفحنا هذه القضية فى ضوء خبرتنا الحديثة وفى ضوء تجاربنا القريبة نجد أن هذه الوسيلة لم تقتصر نتائجها على الأثر المحمود فى تطور أفكارنا وثقافتنا ، بل كان لها أثر مرضى هو الذى نريد طرحه كموضوع البحث فى هذه السطور .

فلكى نتصور هذا الأثر على صورته الحقيقية فى مجتمعنا الإسلامى ، يجب أن نعيد هذا النوع من الاستشراق إلى مصادره التاريخية .

إن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامى فى مرحلتين من تاريخها فكانت فى مرحلة القرون الوسطى ، قبل وبعد طوماس الأكوينى تريد اكتشاف هذا الفكر وترجمته من أجل إثراء ثقافتها بالطريقة التى أتاحت لها

فعلاً تلك الخطوات الموفقة التى هدتها إلى حركة النهضة منذ أواخر القرن الخامس عشر .

وفى المرحلة العصرية والاستعمارية فانها تكتشف الفكر الإسلامى مرة أخرى لا من أجل تعديل ثقافى بل من أجل تعديل سياسى ، لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع فى البلاد الاسلامية من ناحية، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه هذه السياسات فى البلاد الاسلامية لتسيطر على الشعوب الخاضعة فيها لسلطانها وربما انطبقت هذه المجهودات العلمية فى نفس أصحابها ، على مجرد الإعتراف بفضل تلك الشعوب وبمساهمتها فى تكوين الرصيد الحضارى الإنسانى ، ولا شك أن المستشرق سيديو والعلامة غسطاف لوبون يتسمان فى إنتاجهما بميزة العلم الخالص والاجتهاد الخاص للحقيقة العلمية .

ولكن تجب هنا الملاحظة بأن هذا اللقاء الجديد وقع فى ملابسات تاريخية لم يكن فيها العلم الاسلامى علماً حياً ينقل من أفواه الأساتذة مباشرة ومن كتبهم المعاصرة

بل أصبح أشبه شيء بعلم الآثار يكتشفه الباحثون الأوروبيون بحكم الصدفة ويصدقون أو لا يصدقون في نقله، ثم ينسبونه لأصحابه من العلماء المسلمين، أو ينسبونه لأنفسهم أو لأحد الأوروبيين، فهكذا كانت اكتشافات كبرى تنسب لغير أصحابها، مثل دورة الدم الصغرى للانجليزي وليام هرفي بينما كان صاحبها، الطبيب المسلم ابن النفيس يعيش قبله بأربعة قرون.

كما تجب الملاحظة أيضاً أن العالم الاسلامي أصبح في هذه الملابسات يعاني الصدمة التي أصابته بها الثقافية الغربية، ويعاني بسببها على وجه الخصوص أثرين: مواجهة مركب نقص محسوس من ناحية، ومحاولة التغلب عليه من ناحية أخرى حتى بالوسائل التافهة.

ولقد أحدثت هذه الصدمة، عند قبيل من المثقفين المسلمين، شبه شلل في جهاز حصانتهم الثقافية، حتى أدى بهم مركب النقص إلى أن ولوا مدبرين أمام الزحف الثقافي الغربي، وألقوا أسلحتهم في الميدان،

كأنهم فلول جيش منهزم فى اللحظة التى بدأ فيها الصراع الفكرى يحتدم بين المجتمع الاسلامى والغرب ، فأصبح هذا القبيل من المثقفين يبحث عن نجاته فى التزى بالزى الغربى ، وينتحل فى أذواقه وسلوكه كل ما يتسم بالطابع الغربى حتى ولو كان هذا الطابع ليس إلا مظهراً لا شيء وراءه من القيم الحضارية الغربية الحقيقية .

وبدأت تظهر فى الأفق الثقافى الاسلامى الفكرة الجديدة التى حركت ، بعد حرب السباى (١٨٥٨) بالهند ، تأسيس جامعة عليكرة ، وحركت ، من جانب آخر وضد هذا المشروع ، باعث النهضة الاسلامية السيد جمال الدين الأفغانى .

وهكذا أصبح الفكر الاسلامى على أثر الصدمة الثقافية التى اجتاحته وما تسبب عنها من مركب نقص . ينحاز إلى معسكرين : أحدهما يدعو لتمثل الفنون والعلوم الأشياء الغربية — حتى اللباس — والآخر يحاول التغلب على مركب النقص بتناول حقنة اعتزاز يعلل بها النفس .

فالتيار الأول كان من الناحية العقلية ، والسياسية والاجتماعية له أثره فى لونين ، اللون الذى يتمثل فى تأسيس جامعة عليكرة ، واللون الذى يتمثل فى دعوة جمال الدين الأفغانى مع تباين الأهداف وتشابه الوسائل التى كانت تفرض على العالم الاسلامى فى كلتا الحالتين تطوراً يؤدى به إلى « الشيئية » و « التكديس » .

وأما التيار الثانى — وهو موضوع حديثنا لاتصاله بانتاج المستشرقين — بانه وجد منحدره الطبيعى فى أدب الفخر والتمجيد الذى نشأ منذ القرن التاسع عشر على أثر ما نشره علماء مستشرقون ، أمثال دوزى ، عن الحضارة الاسلامية .

ولا يمكننا ، على أية حال ، أن نجعل بين التيارين فاصلا قاطعاً ، لأن الثانى منهما لا يكون مدرسة مستقلة عن الأول ، بل نجده يخامر الفكر الاسلامى على العموم ويتخلل اتجاهه العام كفكر يبحث عن حقنة اعتزاز للتغلب على المهانة التى أصابته من الثقافية الغربية المنتصرة

كما يبحث المدمن عن حقنة المخدر التى يستطيع بها مؤقتاً إشباع حاجته المرضية .

وهذا لا يجعلنا ننفى لهذا التيار ، ولنوع الأدب الذى نتج عنه كل أثر حسن فى مصير المجتمع الاسلامى ، لأنه كان له نصيب لا يزهد فيه فى الحفاظ على شخصيته ، والجيل الذى أنا منه يدين له بذلك النصيب على الأقل فى المحافظة على شخصيته الاسلامية .

إننى على سبيل المثال ، قد اكتشفت وأنا بين الخامسة عشر والعشرين من العمر ، أمجاد الحضارة الاسلامية فى ترجمة دوسلان لمقدمة ابن خلدون وفيما كتب دوزى عنها وأحمد رضا بعد الحرب العالمية الأولى .

وإننى على إدراك تام لما أدين به لهذه المطالعات وقد ذكرت ذلك فى الجزء الأول من « مذكرات شاهد القرن » ، والآن ، وأنا قد تجاوزت الستين من العمر ، أستطيع أكثر من ذى قبل تقدير هذا العلاج للفكر

والضمير لا فى النطاق الشخصى فحسب بل فى النطاق الشامل للمجتمع الاسلامى طيلة أربعين سنة بعد تجربتى ، فأرى أن أقرر هنا مع الاختصار اللازم فى هذا الغرض أن مساوىء طريقة هذا العلاج تظهر لى بالتالى أكثر من حسناتها وذلك لأسباب متعددة .

فالسبب الأول لأنه بديهى نلاحظه فى الآثار النفسية لأسلوب التكوين ، أى البيداغوجية ، بالنحو الذى نشير إليه بمثل بسيط .

إننا عندما نتحدث إلى فقير ، لا يجد ما يسد به الرمق اليوم ، عن الثروة الطائلة التى كانت لآبائه وأجداده إنما نأتيه بنصيب من التسلية عن متاعبه بوسيلة مخدر يعزل فكره مؤقتاً وضميره عن الشعور بها : إننا نقلها لانشفيها .

فكذلك لا نشفى أمراض مجتمع بذكر أمجاد ماضيه ولا شك أن أولئك الماهرين فى فن القصص قد تصوا

للأجيال المسلمة فى عهد ما بعد الموحدين قصة ألف ليلة وليلة. وتركوا بذلك أثر كل محز، نشوة تخامر مستمعيهم حتى يناموا فتنغلق أجفانهم على صورة ساحرة لماضى مترف.

ولكن سوف تستيقظ هذه الجماهير فى الغد فتنفتح أبصارهم من جديد على مشهد الواقع القاسى الذى يحيط بها فى وضعها الذى لا تغبط عليه اليوم.

فالأدب الذى ينشر « عصور الأنوار » للحضارة الاسلامية يؤدى أولا هذين الدورين، إنه أتاح فى مرحلة معينة الجواب اللائق للتحدى الثقافى الغربى وحفظ هكذا مع عوامل أخرى على الشخصية الإسلامية، ولكنه من ناحية أخرى صب فى هذه الشخصية الاعجاب بالشىء الغريب ولم يطبعها بما يطابق عصر الفعالية والميكانيك.

وليست هذه الملاحظة مجرد شىء عابر نمر عليه فى هذا الغرض من الكرام، بل يجب أن نقف عندها بكل إهتمام وتأمل، ولذا كانت أهميتها تلوح لنا من الجانبين

الإجتماعى من دون أى تردد ، فإنها تتخذ صورة أوضح إذا مـا طرحناها على صعيد معركة الأفـكار التى تجتاح العالم اليوم بصورة عامة والمجتمع الإسلامى بصورة خاصة.

وهنا تجنب كلمة عن هذا المفهوم الذى نعنيه : « الصراع الفـكرى » فى العالم الاسلامى ، يجب أن نقرر مبدئياً هذه القاعدة العامة ، ألا وهى أنه عندما يطرح مسلم أو بعض المسلمين مشكلة ما تهم مجتمعهم ، فان هذه المشكلة تـكون قد طرحت أو ستطرح عاجلا فى أوساط المتخصصين فى هذه الدراسات لحساب وتحت إشراف الاستعمار .

وكلما يتقدم هـذا المفـكر المسلم أو هؤلاء المسلمون بحل لهذه المشكلة يسرع من طرفهم أولئك الاخصائيون لدراسة هذا الحل ، فان كان خاطئاً ، زادوا فى شحنة خطئه بطريقة أو أخرى ، وإن كان فيه بعض ما يفيد حاولوا كل جهـدهم للتقليل من شأنه ، وتخفيض قيمتـه حتى لا يفيد .

هذه هى القاعدة العامة فى الصراع الفـكرى الذى نشير

إليه . ويترتب على هذا ، أنه كلما لاحت فى العالم الإسلامى أى بادرة ذات مغزى ، ولو كانت لا تبصرها أعيننا ، فان مجهر أولئك الإخصائيين يلتقطها على الفور ، ليجرى عليها كل طرق التحليل ، وإذا وجدوا فيها أى اتصال بحركة الأفكار فى العالم الإسلامى ، تجرى عليها كل عمليات التشريح ، وتمر بكل أصناف التقطير ، حتى يبقى فى محتواها الاجتماعى أقل ما يمكن من عوامل التيسير لصلاحيتها وأكثر ما يمكن من عوامل التعسير وانتفاء الصلاحية .

ومن الواضح أن من أكثر البوادر دلالة على اتجاه مجتمع ما ، هو اتجاه أفكاره : فاما أن تكون متجهة إلى الأمام ، إلى المستقبل ، أو إلى الخلف ، اتجاهاً متقهقراً ، اتجاهاً ملتفتاً إلى الماضى بصورة مرضية .

ومن دون أن نستمر إلى أبعد من هذا فى تحليل هذه الاحكامات الدقيقة للصراع الفكرى فلتلق هذه الاعتبارات على موضوعنا بالذات ، نعنى أثر هذا النوع

من أدب المدح والتمجيد والاطراء على سير الأفكار ، والاتجاهات فى المجتمع الإسلامى المعاصر ، فنرى على الفور الجانب الآخر لهذا الأدب ، عندما يصير بين يدى أولئك الأخصائيين وسيلة عمل جهنمى فى تحريك رحا الصراع الفكرى المحتدم فى بلادنا .

إننا نرى اليوم مرأى العين هذا العمل الفتاك ، ونرى أثره فى كل تفاصيل حياتنا الفكرية ، والسياسية والاجتماعية ، وفى البلاد العربية حيث تكونت تجربتى وخبرتى كمواطن وككاتب وكصحافى .

وليس كتاب كامل بكاف لسرد هذه التجربة . ولنذكر منها فقط ، على سبيل المثال آخر تفصيل من تفاصيلها : انعقد أخيراً بباريس مؤتمر العمال الجزائريين بأوربا وبهذه المناسبة تقرر من لدن المشرفين على المؤتمر توزيع كتيب لصاحب هذا العرض ، تناول فيه مشكلة من مشاكلنا اليوم ، بالخصوص فى الجزائر ، البلد الذى اتخذ من كلمة « الديمقراطية » شعاره الدستورى .

ولـكن أصحاب الإختصاص فى الصراع الفكرى لم يهملوا هـذه المناسبة من اهتمامهم ، ولم يفتهم ما تقرر توزيعـه بهذه المناسبة ، ولـكن كيف يسدون الذريعة ، أعنى كيف يسـدون الطريق على الأفـكار المعروضة فى الـكتيب الذى سيوزع أثناء المؤتمر ، حتى لا يصل مدها إلى رؤوس المؤتمرين ، أو على الأقل حتى يـكون لها أقل مد ممـكن ؟

ولذا بنا نرى الدعوة توجه إلى تلك السيدة الألمانية المقربة التى وضعت أو وضع اسمها على ذلك الـكتاب ذى العنوان الجذاب « شمس الله تشرق على الغرب » وفيه ما فيه من مدح وتمجيد الحضارة الإسلامية .

وتقدمت السيدة ، وقدمت كتابها إلى المؤتمر ، فانتقل على الفور بروحه من مجال المشكلات الحادة القائمة اليوم ، إلى أبهة وأمجاد الماضى الخلاب !

ولم يـكن الصديق الذى كان يذكر لى هـذه القصة

يخطر على باله أى شىء من صلتها « بالصراع الفكرى » ؛ وهو يقول : وفى الأخير قامت القاعة كلها لتحي السيدة !

ولا شك أن القصة تكشف عن جانبين : الجانب الذى يبرز حساسية الجماهير المسلمة لأمجاد ماضيها ، والجانب الذى يكشف عن إمكان استغلال هذه الحساسية لا لفات تلك الجماهير عن حاضرها .

وهذا الجانب هو الذى يهمنا لأنه يلتقى فى الزمن مع أوج المواجهة العارمة التى تكتسح اليوم العالم من أمواج الصراع الفكرى ، ولأنها فعلا موجهة فى اوجها بالخصوص فى البلاد الاسلامية ، حتى وإن كانت لا تشعر بها أحيانا . إنما نرى كيف يتصرف أولى الاختصاص فى الصراع الفكرى ، فى ظرف خاص من ظروفه ، عندما تعرض فكرة عمل وتأمل على الجماهير الاسلامية ، كيف يستطيعون لفت الأنظار عنها بعرض أفكار أخرى فى المناسبة ذاتها ، أفكار جذابة ، تدعو الأحلام السعيدة التى

أفكار مقتبسة من قصص ألف ليلة وليلة .

هذه هي القاعدة العامة التي يجب علينا أن نجعلها دوماً نصب أعيننا : اننا كلما طرحنا مشكلة وعرضنا لها حلا من الحلول فان قادة الصراع الفكري يأتون على الفور بما يلفت عنه الأبصار أو ما يزيفه تزييفاً .

وما الحلول التي تعرض علينا في المجال السياسي ، مثل البعثية ، والبربرية ، والافريقية ، والشيوعية — تلك الشيوعية التي يرعاها الاستعمار ويسهر على نبأتها في مدغآته وما ذلك الأدب المطنب في المدح والتمجيد لماضينا إلا وسائل إلفات في المجال السياسي أو في المجال الفكري ، حتى يلتفت العالم الاسلامي عن أم مشكلاته ، ألا وهي مشكلة حضارته ، حتى يلفتوه عنها ، ويربطوا اهتمامه بمشكلات وهمية ، ويلهوه بحلول وهمية ، يتجلى عبثها بصورة مفجعة في ظرف من الظروف الخطيرة غداة إفلاس مفجع ، وهزيمة شنيعة ، وفضيحة مخجلة ، مثل غداة ٥ يونيو ١٩٦٧ .

والواقع أن قضية عمليات الالفات والتسلية كانت قائمة منذ قبل الحرب العالمية الأولى ، غير أنها تطوح اليوم العالم الاسلامى يمر فى هذه الآونة بالذات ، بأخطر أزمة فى تاريخه ، حتى أننا نستطيع القول — إذا ما طرحنا جانباً بعض المظاهر من تطوره — أنه كان قبل أربعين سنة أقرب إلى الحل الرشيد لمشكلاته وهو مستعمر ، لأن وحدته الروحية أو الايديولوجية كانت أمتن منها اليوم فهو الآن ، وهو مستقل ، كأنما يبتعد عن هدفه لأن وحدته هذه قد تصدعت من عملية التقسيم التى أجريت عليه منذ أربعين سنة .

هذا هو الوضع الحقيقى ، إذا ما طرحنا جانباً بعض المظاهر الخادعة — بحيث أننا إذا حكمنا بأن المجتمع الاسلامى — ككل يواجه نفس المشكلة — قد تخلف منذ ربع قرن ، وتقهقر ، فليس فى حكمنا أى إجحاف بالحقيقة وإنما الخطأ فى هذه النقطة بالذات يعود إلى أننا تعودنا تقدير الأشياء بالمقياس السياسى ، ذلك المقياس الذى يجعلنا

نقارن الوضع فى حالتين مرت بها الدول الاسلامية على صفحتين قريبتين من التاريخ ، قبيل الحرب العالمية الثانية ، وهى فى نير الاستعمار ، وبعد تلك الحرب ، وهى متحررة سياسياً فى أغلبها ، دون أن نقف بالتأمل عند حقيقة هذا التحرر الذى لم يحم تلك الدول حتى من غيلة دويلة إسرائيل ، بينما يكشف لنا هذا السير أو التطور منذ ربع قرن على أن المجتمع الاسلامى ضيع فيه ، بين صفحتى التاريخ المشار إليها ، أثمن ما عنده كزاد طريق ، نعنى الشعور بوحدة المصير ، وضرورة الحل الواحد الذى لا تجزى عنه بعثية ، ولا بربزية ، ولا نزعة افريقية ، ولا شيوعية مصطنعة ، ولا خرافات ألف ليلة وليلة .

واليوم تعترض العالم الإسلامى هذه المشكلة فى صورة متحارجة ، شكسبيرية : هل نكون أو لا نكون ؟ بينما تلمح ريشة الساعة إلى الاحتمال الثانى ، منذ أتت أحداث يونيو ١٩٦٧ معبرة بلغتها القاصية على عبث تلك التشييدات السياسية والعسكرية التى تستند على ظاهرة الشيئية تعنى

تكديس تلك الأشياء التي جمعت في عشرين سنة من أجل الدفاع عن النفس ، والتي ذابت في أول ساعة عند هجوم إسرائيل ، وليس بمجد ، لمواجهة الدولة الصهيونية أن نكدس من جديد ، ذخيرة وزاداً وعتاداً ، ليس بمجد تجديد الأشياء ، بل تجديد الأفكار ، ولكن تجديدها بصورة جذرية ، بحيث تعوض تلك التي تؤدى إلى الهزيمة الهائلة وإلى الفضيحة الشنعاء ، لأنها تفقد الروح التي ترفع الإنسان إلى مستوى مهماته ، بالأفكار الحية ، المحيية التي تعطى الانسان تلك الدفعة الجبارة التي ترفعه إلى قمة واجباته أمام الأحداث الكبرى .

يجب أن نقف عند هذه الحقيقة ، أن ما ينوب مجتمعاً ما في منعطفات التاريخ الخطيرة ، ليس من قلة أشيائه ولكن من فقر أفكاره .

وما فاجعة سيناء ، في غرة يونيو ١٩٦٧ ، إلا المحك العملي الذي يبرز هذه الحقيقة العامة ، في ظرف خاص للأمة العربية ، ولعلي يجدر بنا أن نقف عند الظرف

لنستخلص منه عبرة أخرى ألا وهي أن النصر الخاطف الذى أحرزته إسرائيل فى هذا الظرف على كوم جامد من الأشياء التى كانت بيد العرب ، أصبح يواجه على نفس الأرض صعوبات لم يتوقعها ، لأنه يواجه اليوم رجالا تحركهم أفكار جديدة ، بل رجالا تجددوا هم بهذه الأفكار : إن قصف باخرة « إيلات » والموقف البطولى للفدائيين الفلسطينيين على حدود الأردن ، وداخل الأراضى المحتلة ، ليسا إلا تعبيراً واحداً على التحول الذى حدث ، أثر النكبة ، لا فى عالم الأشياء بالنسبة للعرب ، بل فى عالم أفكارهم .

ولست أتعرض هنا لقضية الأفكار بالنسبة لمجتمعنا إلا بصورة عابرة ، تاركا هذا الموضوع المهم إلى فرصة أخرى .

وحاصل الأمر أن الصدمة التى حصلت للضمير الاسلامى فى القرن التاسع عشر وفى هذا القرن ، تجاه الحضارة الغربية ، كانت محسوسة فى عالم أفكارنا على

وجه الخصوص ، وفى مجال الأفكار العلمية بالذات ، بحيث كان لهذه الصدمة أثرها حتى فى ميدان تفسير القرآن الكريم ، ولا شك أن عملا جباراً مثل تفسير طنطاوى جوهرى ، ذلك التفسير الذى لا نجد فيه كثيراً من الجدوى ، يعزى قطعاً إلى هذا التأثير العلمانى على أفكارنا ، مع الملاحظة أنه يعبر فى نفس الوقت على ظاهرة التكديس ، تكديس المعلومات طبعاً ، بحيث يصبح هذا العمل الشاق كله أقرب إلى دائرة معارف منه إلى تفسير القرآن ، كما أنه يعبر عن ظاهرة جديدة ، هى تلك العلمانيه العقيمة التى ليست بالنسبة للفكر الاسلامى إلا عملية تعويض فى الميدان الذى شعر فيه أكثر بتحدى الحضارة الغربية .

والآن نستطيع القول أن هذا الميدان بالذات كان التربة الخصبة الذى وجدها الأدب الاستشراقى ، من النوع الذى يتصف بالمدح والتمجيد ، ليزرع فيها كل تلك المخدرات التى يتقبلها بكل شغف مجتمعنا لأنها تخدر ضميره

وتسليه ، ولكن هذا الضمير لا زال فى صراع داخلى تسكنه أحياناً مؤلفات مشارقة مثل طنطاوى جوهرى ، وأحمد رضا وفريد وجدى ، أو مستشرقين مثل دوزى وجوستاف لوبون ، أو تثير مؤلفات أخرى لمشارقة ومستشرقين آخرين فى صورة استثارات وتحديات جديدة لما تستصغر هذه الطائفة أو تلك ما ساهم به العرب فى تنمية العلوم ، إبان حضارتهم قاصرين دور هذه الحضارة على مجرد تبليغ ما أنتجه اليونان والرومان .

وإذا أردنا أن نخص إحدى هاتين الطائفتين بالذكر ، نقول أن بعض هؤلاء المشارقة المتلمذين للمستشرقين يخفون عملهم التخريبي ضد الإسلام ، بإيعاز واضح من أوساط استعمارية ، تحت رداء تقدمية جوفاء تحاول سلب الاسلام من كل قيمة حضارية ، بل تنسب له حالة التخلف الراهنة فى العالم الاسلامى .

ولا شك أن كتاب « الايديولوجيات العربية فى محضر الغرب » ، الذى ظهر منذ بضعة أشهر بتقديم من مكسيم

روزندبسون ، لا شك أن هذا الكتاب المبنى على منطق سفسطائى ، ذو صلة متينة بهذا التيار ، وأن صاحبه ، التلميذ المراكشى لصاحب المقدمة ، من هذه الشجرة التى يجوز لنا أن ننسب لها أيضاً من تلامذة المستشرقين حتى أولئك الأبرياء الذين يضعون أقدامهم من غير شعور فى ثقافة الغرب بل فى سياسته أيضاً ، ويتقدمون هكذا بأنصاف الحلول لأنصاف المشكلات التى يعتقدونها المشكلات الرئيسية للعالم الإسلامى غير أنهم يختلفون بحسن نواياهم عن الآخرين أولئك الآلات المسخرة بين أيدى اختصاصي الصراع الفكرى ، السائرين على أثر أساتذتهم الغربيين ، لا يختلفون معهم إلا فى مهارة الأسلوب والتزويق فى الصيغة ، ويلتقون مع أساتذتهم فى الانتقاص من سوابق الفكر الاسلامى ، ولكن يمتازون فى إحاطة مستقبله بالريبة والإبهام بتلك الثرثرة التقدمية مثل صاحب كتاب « الايديولوجيات العربية فى محضر الغرب » الذى أشرنا إليه .

وهكذا يبقى الضمير الاسلامى فى دوامة صراعه الباطن يسكنه أحياناً ما يكتب المادحون ويثيره أحياناً أخرى ما ينتجه المفندون ، وقد استمر هذا الصراع منذ قرن فى حلقة مغلقة ، مستهلكاً أجدى الطاقات الفكرية فى العالم الاسلامى من دون جدوى ، من دون أى تأثير حقيقى على تطور العقلية الاسلامية ، لم ينتج إلا بعض الصواريخ الأدبية الخلابة فى تلك المؤلفات الجميلة التى لم يبق لها أى أثر مثل كتاب « روح الاسلام » للسيد أمير على .

بحيث لو أننا حاولنا اليوم أن نجعل تقويماً لهذا الانتاج نراه يعبر أحسن تعبير على تبذير طاقات فكرية ثمينة لم يحسن استخدامها ، وإذا أردنا أن نعطى هذا التقويم كل معناه يجب أن نقارن هذا الانتاج بما أنتجه لوثر وكلفان إبان حركة الاصلاح فى أوروبا ، وإنتاج ديكارت الذى وضع أقدام أوروبا على طريق التطور التكنولوجى أو إنتاج ماركس وأنجلس ولينين الذين

وضعوا على أقدامه مجتمعاً جديداً يغزو اليوم الفضاء .

وبالتالى يتبين لنا أن الانتاج الاستشراقى ، بكلا نوعيه ، كان شراً على المجتمع الاسلامى ، لأنه ركب فى تطوره العقلى عقــدة حرمان سواء فى صورة المديح والاطراء التى حولت تأملاتنا عن واقعنا فى الحاضر وأغمستنا فى النعيم الوهمى الذى نجده فى ماضينا ، أو فى صورة التفنيد والاقلال من شأننا بحيث صيرتنا حماة الضيم عن مجتمع منهار ، مجتمع ما بعد الموحدين ، بينما كان من واجبنا أن نقف منه عن بصيرة طبقاً ولـكن دون هوادة ، لا نراعى فى كل ذلك سوى مراعاة الحقيقة الاسلامية غير المستسلمة لأى ظرف فى التاريخ ، دون أن نسلم لغيرنا حق الاصداع بها والدفاع عنها لحاجة فى نفس يعقوب .

وعلى كل ، فان أمكننا أن نصرح بأننا نجد على كل وجه جانباً إيجابياً فى هذا الاستشراق ، فاننا لا نجده فى صورة المديح ، بل فى صورة التفنيد .

فعندما نعلن الإستشراق أنه لا نصيب للعرب فى تشييد صرح العلوم ، وربما يؤدى بنا هذا الموقف المتطرف إلى تلافيه بعلمانية سطحية نشاهد أثرها حتى فى إنتاج بعض المفسرين مثل طنطاوى جوهرى ، ولكن هذا الموقف يضطرنا ، بما فيه من إفراط فى الجحود ، إلى طرح مشكلة الاسلام والعلم فى صورة جديدة تتماشى أكثر مع سمو الدين ومنطق العلم ، بحيث لا نصبح نبحث فى الآيات الكريمة هل ذكر فيها شيء عن غزو الفضاء أو تحليل الذرة ، وإنما نتساءل هل فى روحها ما يعطل حركة العلم ، أو على العكس ما يشجعها وينميها .

يجب على وجه الخصوص أن نتساءل إذا ما كان يستطيع القرآن أن يخلق فى مجتمع ما المناخ المناسب للروح العلمى ، وان يطلق فيه الأجهزة النفسية الضرورية لتقبل العلم من ناحية ، ولتبليغه من أخرى .

هذه صورة المشكلة إذا ما طرحناها كما يجب طرحها ، نعنى من الجانب النفسى الإجتماعى ، لا من جانب تاريخ

تطور العلم ، ولو كان علينا ان نبرر الفكر الاسلامى من هذه الناحية بالذات ، لكفانا أن نضع فى حسابه ابتكارين لولاهما لم يكن التقدم التكنولوجى فى القرن العشرين شيئاً يتصوره العقل ؛ أجل إن التقدم التكنولوجى يشمخ اليوم فى فصل العلم النووى الذى لا يمكن للباحثين فى هذا الفصل من علوم الطبيعية أن يحصلوا فيه على طائل لولا ما يجدونه مهيئاً تحت أيديهم من طرق حساب سرعتها فوق كل سرعة ، يمكن تصورها فى عمليات الآلات الحاسبة الألكترونيه .

فهل يمكن لهذه الآلات أن تقوم بعملياتها لو لم يهيء من قبل ذلك النظام العشرى الذى تستطيع به كتابة رقم افوجدرو ، على سبيل المثال ، بخمسة رموز فقط ، أو سبعة إذا تحرينا دقة أكثر ؟ .

والآن نتساءل : ألسنا ندين بوضع هذا النظام العبقرى لذلك المناخ العقلى الذى كونته القيمة القرآنية فى المجتمع الإسلامى ؟ .

كما أننا لو تساءلنا عن دور الجبر ، فى تطوير علم الحساب ، بحيث يتحول من علم الأرقام المحسوسة إلى علم الرموز المجردة ، لأدركنا بعد الأخذ فى حسابنا أن إسم الجبر نفسه عربى من ناحية الصيغة والاشتقاق ، لأدركنا ، ما يدين به العقل الانسانى إلى العقل الإسلامى من وسيلة لا يستطيع بدونها السير والتقدم فى ميدان علوم التقدير والضبط .

ولا يضيرنا ان يعزى الجبر ، من طرف متطفلين من تلامذة المستشرقين مثل فريد وجدى الذى عزاه إلى اليونانى ديوفانت بلا دليل ولا أى حجة ، لا يضيرنا ذلك : إن الجبر أتى إلى الوجود فى المناخ الذى خلقه القرآن .

ولقد يكون من العبث الصبيانى أن نربط الصلة هنا ، بين الآيات المنزهة وبين النظام العشرى أو الجبر ، عن طريقة ما يسمى تاريخ تطور العلوم .

إن القرآن الكريم لم يأت قطعاً ، وبصورة مباشرة ،

لا بالحساب العشرى ولا بالجبر ، ولكنه أتى بالمناخ العقلى الجديد الذى يتيح العلم أن يتطور كما تطور بالنسبة إلى مرحلته السابقة فى العهد الأغريقى والرومانى ، والأمر الجديد بالملاحظة هو أن تطور العلم لا يناط بالمعطيات العلمية فحسب ، بل بكل الظروف النفسية الإجتماعية التى تشكون فى مناخ معين ، والأمر الجديد بالملاحظة أيضاً هو أن مراكز الاهتمام العقل تتغير من عصر إلى آخر ، من حضارة إلى غيرها ، حسب التغيرات التى تحدث فى المناخ العقلى بالذات .

إننا نستطيع قطعاً ربط العلاقة ، من الناحية التاريخية ، بين عهد الصناعة والتصنيع واكتشاف دونيس بيبان الذى كان ينظر إلى غلاية ماء فوق النار ، فلاحظ أن مغلقها يرتفع وينزل بالتوالى ، فاكتشف هذا طاقة البخار بالصدفة . ولكننا نلاحظ أن هذه الصدفة كانت تتكرر عبر الأجيال منذ اكتشاف النار ، فلم تؤد إلى اكتشاف الطاقة البخارية إلى عهد بيبان .

« لماذا ؟ السبب فى ذلك هو أن دونيس بيبان أو نظيره الانجليزى واط كان يمارس ملاحظاته ويتفهمها ويفسرها فى مناخ عقلى جديد ، تكون فى أوربا منذ قرنين من قبل لما كتب ديكارت « خطابه » المشهور فى المنهج وقال فيه هذه العبارات المتنبئة الموجهة :

« إنه لمن الممكن الوصول إلى معرفة تطبق تطبيقاً نافعاً فى الحياة ، بحيث تترك مدارس التعليم تلك الفلسفة السكولاستية ، وتعلم فلسفة تقبل التطبيق ، وتتيح لنا ، بعد معرفة تأثير النار والهواء والأجرام الفلكية ، والسماوات وكل الأجرام التى تحيطنا ، أن نستخدمها تحت قانونها بالذات لمصلحتنا الخاصة بحيث نتمكن من امتلاك الطبيعة والهيمنة عليها » .

إن هذه العبارات ناصة فعلا ، متنبئة بما سيحدث بعد ديكارت من انقلابات علمية وتكنولوجية ، فهى تدل بكل وضوح على المنحدر الذى سيتبعه الفكر الأوروبى فى بحثه عن الحقيقة العلمية ذات النفع المباشر ، وكان لزاماً

أن يلتقى الفكر الأوروبى على هذا المنحدر مع الطاقة البخارية سواء كان دونيس بيبان هو المكتشف أو غيره.

وبالتالى فان منهج ديكارت هو الذى كون ، بصورة أعم ، المناخ العقلى الجديد الذى سترعرع فيه العبقرية المصلحية التى تتميز بها الحضارة الجديدة .

وهذه هى الزاوية بالذات التى تقدر منها العلاقات العامة بين الاسلام والعلم فموقف الانسان المسلم أمام عالم الظاهرات ، والمنحدر الذى تتبعه العقلية الإسلامية تحت دفعة النص القرآنى ، والمناخ العقلى الجديد الذى ستتطور فيه هذه العقلية ، هذه الأشياء هى فى التالى العناصر الأساسية للقضية ، فحسب .

فالعلم ، من حيث أنه علم ، هو مجموعة المعلومات ومجموعة الطرق المؤدية لاكتسابها . ولكن يجب علينا إضافة شىء إلى هذا التعريف الذى تصورناه من زاوية علم تاريخ التطور العلمى ، لأن التطور العلمى لا ينحصر فى هذه الزاوية ، بل هو منوط أيضاً بمجموعة شروط

نفسية إجتماعية ، تؤثر سلبياً أو إيجابياً ، بحيث تعطل هذا التطور أو تتيحه أكثر .

وعلى سبيل الايضاح ، فإن جليليه ، لما أعلن نظرية دوران الأرض ، لم تواجهه معارضة علمية ، بل معارضة كلامية ، نعنى معارضة عقائدية ، ولم تدن جليليه أكادمية علوم ، بل أدانته محكمة دينية تحكمت فى أمره باسم العقيدة إن ما أدانه هو بالتالى مجموعة عوامل القمع والحرمان الموجودة فى نفسية المجتمع الذى حكم عليه بالأعدام .

ولكى نعطى لهذه الملاحظة كل معناها ومغزاها تجب ملاحظة أخرى أن فى هـذا المجتمع الأوربى ، مجتمع ما قبل ديكارت ، الذى أعدم أحد كبار علماء الفلك ، كان المنجم يقوم بدور كبير المستشارين ، ويكرم ويقرب فى بلاط الملوك ، مثل نوستراد موس الذى كان مستشار الملكة كاترينة دامد تشى فى البلاط الملكى الفرنسى .

ولمزيد من التوضيح يجب أن نقول أن جليليه هذا

لو كان يعيش فى المجتمع الإسلامى ، حتى ألما به فى ذلك العصر فى حركة الجزر الحضرى ، ما كان ليتعرض لنفس العوامل التى حدت من عمله العلمى ، وبالتالى حطمت حياته ، وإننا لنرى فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، أحد كبار الملحدين فى ذلك العصر ابن الروندى المذكور فى كتاب الزركلى ، نراه ينتقص من شخص النبى الأمى عليه الصلاة السلام فيقول فى شأنه : لقد نجحر عريضاً ابن أبى كبشة حين ادعى أنه خاتم الأنبياء » والمشار إليه بابن أبى كبشة معروف لدى الجميع ، ومع هذا لم نر محكمة تفتيش تنعقد من أجل محاكمة وإدانة هذا التعدى البليغ على أكبر شخصية فى الإسلام ، بحيث نرى صاحبه يلجأ بالتالى إلى انتحار أثناء حجة إلى مكة .

وأكثر من هذا : كان اليهودى يستطيع التعدى على عزة القرآن ذاته ، دون أن تنزل به أى كارثة ، ما عدا الردود المنتظرة مثل الرد المفحم الذى ورد فى ابن حزم لما انتقد يهودى من يهود الأندلس ، القرآن الكريم نقدة

غير تنزيه ، فأفحمه ابن حزم فى « رسالة ابن النغريلة » المشهورة .

وهذه الحالات المتطرفة قطعاً ، إن دلت على شيء إنما تدل على أن المناخ العقلى الجديد ، الذى تمتع به المجتمع الاسلامى عندما كان القدوة والنموذج فى العالم ، ما كان يعرف الاكراه كوسيلة قمع للفكر ولحرية الرأى .

وما كان دور عوامل الحرمان إلا فى بعض الحالات الشاذة ، مثل القضية التى طرحها عصر المأمون بشأن القرآن ، هل هو مخلوق أم سرمدى ، وحتى فى هذه الحالات نجد عناصر أخرى تحد من عوامل وتخفف من شدتها ، وهى العناصر التى نمت فى الضمير الاسلامى مع البذور التى بذرها فيه القرآن ، إننا نرى فعلا كيف بدأ المناخ العقلى الجديد يتكون منذ بداية الوحى .

بينما ينفتح كتاب العهد القديم ، منذ السطر الأول فى سفر التكوين ، على عالم الظاهرات المادية ، وينفتح كتاب العهد الجديد فى انجيل يوحنه ، على عملية التجسيد ، ينفتح القرآن على الجانب العقلى : اقرأ باسم ربك .

اقرأ . . . هذه هى الكلمة الأولى التى تفتح إليها أول ضمير إسلامى ، ضمير محمد ، ويتفتح لها بعده كل ضمير مسلم .

إن الحروف هى حقاً أداة النقل للروح ، لكل رسالة ، ولكل بلاغ ، فهى الحامل والرمز لكل معلومة من المعلومات ، فأول مانزل به القرآن يشير إلى أهميتها ، ويخصص موضوعها بالذكر ، ويرسم فى الضمير الاسلامى قيمتها منذ اللحظة الأولى فى كلمة اقرأ .

إن الحرف ينقل ويبلغ الروح ، وفى نفس الوقت يحفظه من الضياع ، وسيحفظ أولا وقبل كل شىء القرآن نفسه ، ذلك الكتاب الذى لم يتغير فيه حرف واحد منذ أربعة عشر قرناً ، على خلاف كل الكتب الأخرى من العهد القديم إلى العهد الجديد ، حيث لم يبق فيها ، من ناحية صحتها التاريخية ، إلا القيمة الرمزية ، التى يحترمها النقد الحديث ، دون أن يعتمدها من الناحية العلمية .

وليست هذه الميزة إلا النتيجة العلمية الأولى ، لهذا الفكر الجديد الذى ظهر فى المناخ القرآنى ، ذلك المناخ الذى تدشن بالضبط يوم قام المجتمع الاسلامى الناشىء ، أيام سيدنا عثمان ، جمع الآى الكريمة لحفظها من التلف ، ولحصرها نهائياً فى صورة لا تقبل أى تغيير ، واللجنة التى قامت بهذا العمل تحت رئاسة سيدنا زيد بن ثابت، قامت فى الحقيقة بأول عمل علمى طبقاً لمنهج ، ليس من موضوعنا هنا ذكر تفاصيله ، ولكنه يوجب إعجاب النقد الحديث إزاء ما تحراه من دقة .

إنه كان حقا أول عمل علمى للفكر الاسلامى ، بل أول عمل علمى للفكر البشرى من نوعه الذى طالما تعثر فى تاريخه ، على مبدأ التسليم للقدوة ، بل لا زال يتعثر عليه حتى الآن أحيانا ، مثلما حدث فى الاتحاد السوفيتى حيث تأخر علم الحياة بثلاثين سنة عن الركب ، أيام القدوة التى افترضها لنفسه ليسنكو فى هذا الميدان .

ولهذا المعوق تاريخه فى جميع المجتمعات الانسانية ، فهو ملازم لتطورها حسب عمرها النفسانى .

فالانسانية ، على العموم ، تمر بثلاثة أعمار من حيث تطورها النفسى ، فهى فى عمرها الأول ، فى طفولتها ، تصيغ كل أحكامها طبقاً لمقاييس تتعلق بعالم الأشياء ، بحيث تكون أحكامها فى أبسط صورها ، معتمدة على الحاسة أو ناتجة عن الحاجة البدائية .

ثم فى عمرها الثانى تصيغ أحكامها طبقاً لمقاييس خاضعة لمبدأ القدوة ، أى صادرة من عالم الأشخاص ، ففى هذا الطور ، لا تكون الفكرة حرة من تجسيد ، بحيث تكون قيمتها مرتبطة بالشخص الذى يجسدها فى نظرنا .

ثم تبلغ الانسانية رشدها ، أى عمرها الثالث ، فتصبح الفكرة ذات قيمة فى حد ذاتها ، دون أيما تأييد من طرف عالم الأشياء أو عالم الأشخاص .

وأن مما يجب ملاحظته هنا ، أن الانسانية تبلغ هذا العمر ، عمر النضج ، بحيث تصبح الفكرة لا تحتاج إلى ضمان قيمتها من طرف الأشخاص علاوة على الأشياء ،

والآية التى تنص على هذا الحدث فى منتهى الوضوح ، إذا ما لاحظنا أن الفكرة الاسلامية مرتبطة بذات النبي « صلى الله عليه وسلم » الارتباط المعروف ، كأنها المجسدة فى شخصه فى نظر ذلك المجتمع البسيط الذى وجهت إليه الدعوة .

ولكن أراد القرآن الكريم أن تتحرر الآية من هذا القيد ، وبالتالى أن يتحرر المجتمع الجديد من هذا النوع من القيود المعطلة لتقدم الفكر والعلم .

ونزلت فعلا الآية المحررة :

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . . . ؟)

ان هذه الآية نزلت بمثابة الدفعة التى دفعت المجتمع البدائى الذى نزلت فيه ، من عصر « الشيء » والشيئية ، إلى عصر الفكر .

وهكذا نرى كل ملامح هذا المجتمع النفسية تتغير

منذ نزول « إقرأ » تغيراً يتولد عنه المناخ العقلى الجديد ، وبالإضافة إلى ذلك نرى نوعاً من الاختبارات تجرى على هذا المناخ لتوضح أكثر ملامحه فى الضمير الاسلامى الناشىء عندما يلقى عليه القرآن مثل هذا السؤال :

قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟

إن هذه الآية الواردة فى صورة سؤال على لسان النبي « صلى الله عليه وسلم » ، إختبار ، وتركيز فى الضمير الاسلامى لقيمة العلم ، ولفضل رجال العلم على الجاهل فى المجتمع الجديد .

والعلم ما هو ، فى أبسط معانيه ، إلا البحث عن الحقيقة فى كل ميدان ، فى الأخلاق ، فى التشريع ، فى الاجتماع ، فى الطب ، الطبيعة الخ . . .

ولكن هذا البحث معرض لمعوقات وإلى متاهات : قد نتخذ وهما بمثابة حقيقة ، قد نتيه فى الآراء ، ورب رأى خطأ ، فعلى العلم أن يواجه هذه الحالات التى يتردد فيها العقل بين الشك والاقتناع ، بتمرينه على هذه المواجهة :

فالقرآن لا يهمل هذا الجانب بل يلفت النظر إليه أحيانا بالإشارة والتلميح ، فيكشف الفرق بين الحقيقة وما سواها مثلا فى قصة يصف فيها انحراف اليهود من هذه الناحية : ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وأن هم إلا يظنون .

فهنا نرى الميل والشك ، ومجرد الاحتمال ، هذه الأمور المعبرة عن صور مختلفة للتردد توضع فى مكانها من « الحقيقة » الساطعة التى تعبر عن الاقتناع العقلى فى أصفى صوره .

وهذه آية أخرى توجه النقد الصارم للفكر الذى يسوغ لنفسه المناقشة فيما لا علم له به ، دون أن يتحرى أولا جمع معطيات موضوع المناقشة :

« ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ . »

فهذه الآيات تضع الفكر الاسلامى فى طريق العلم وتزوده لاكتسابه بأحسن التوجيهات المنهجية ، وغيرها

كثير ، بحيث يكون القرآن الكريم ، من هذه الناحية ، منهجاً تربوياً جديراً بالدراسة فى غير هذا المكان ، إلا أننا نضيف أن المفهوم القرآنى العام ينصب فى الحديث النبوى الذى يصيغه فى القالب التطبيقى ، فى صورة أحكام تدخل مباشرة فى حياة المسلم اليومية ، وفى توجيه وجوه نشاطه :

العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

اطلبوا العلم ولو بالصين .

حبر العلماء أفضل من دم الشهداء .

فهذه الأحاديث وغيرها تدعم عملياً ، كما نرى ، البناءات العقلية التى أنشأها القرآن فى الفكر الإسلامى الذى ينطلق محصناً ، مزوداً ، موجهاً هكذا للقيام بمهمته العلمية والسياسية والاجتماعية .

وإننا لنرى أثر هذا المنهج التربوى الذى هيأ المجتمع الجديد لمهماته العقلية ، حتى فى سلوك الفرد أمام اختبارات

بسيطة فى ظروف ذات مغزى ، نرى مثلا ، عمر بن الخطاب يمر يوماً بدرب من دروب المدينة ، وهو يتلو ، على طريقته فى الجلوس أو فى المشى ، يتلو الآية ، « أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً وزيتونا ونخلا وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبّا » .

وها عمر يقف عند كلمة « أبا » ويشعر أنه لا يعرف معناها ، ترى كيف سيحل هذه المشكلة ؟ إن عمر ليس من علماء اللغة ، وهذا العلم نفسه ليس موجوداً بعد ، إلى عصر صاحب كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهدى الذى يجب أن نعتبره اليوم المؤسس لعلم اللغات ، وليس عمر بالمفسر أيضاً ، إنه رجل فقط ، رجل عمل لا يحق له أن يتورط فى الشؤون التى ليست من إختصاصه ، وإلا وقع فيما حذر منه القرآن الكريم فى قوله لليهود : « فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ » .

وإننا لنرى عمر لا يقف إلا هنيهة عند الكلمة التى

أوقفته ، والتى لا تنقص شيئاً ، إن جهلناها ، من وضوح الآية لأى ضمير مؤمن ' فالمشكلة بالنسبة له ، فى هذه اللحظة ، ليست فى نطاق العلم ، ولكن فى نطاق السلوك ، ونراه فعلا يحلها بكلمة يؤنب بها نفسه : « ما لعمر والأب ، إن جهل ما الأب ، إن هذا إلا لكلفة يا عمر » .

وانطلق عمر إلى شؤونه ، حيث تدعوه المسؤوليات الكبرى ، ونراه يوماً آخر يجتهد فى تحديد صداق المرأة ، لأنه يراه فوق ما يناسب فى نظره ، ولكن ها هى امرأة تعارضه ، فتقول له : ما أعطاك الله ذلك يا عمر ، وتذكر الآية : وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ؟ » .

فسكت عمر ثم قال : إن كل الناس أعلم منك يا عمر حتى هذه المرأة العجوز .. وتراجع عن رأيه .

إننا نرى فى هذين الظرفين موقف العقل تجاه الاختبارات

التى تعرض له ، نرى فى الظرف الأول كيف يتحرر العقل فى المناخ الجديد من الشكليات ، من سطان المفرادت الذى طالما عوق تقدم العلم .

وفى الظرف الثانى نراه كيف يتحرر من المكابرة وهى شر عدو للحقيقة ، وأكبر معوق للفوز بها .

بل نرى كل ظرف يعبر فى المجتمع الجديد على المناخ العقلى الذى كونه القرآن ، نرى مثلا على بن أبى طالب ، يحتقر يوم النهروان رأى المنجم الذى يشير عليه بالانطلاق فى وقت معين ، فينطلق على فى غير ذلك الوقت ، متعمداً وينتصر ، ثم يقول على الملأ : لو انطلقنا فى الوقت الذى أشار به المنجم لقال لنا إننا انتصرنا بما أشارت به النجوم » .

وفى ظرف آخر يسلم الراية إلى زياد بن النظر ويقول له : « قد هذه الفئات ، واستفد برى عالمهم ، وعلم جاهلهم » .

وهنا نرى في المناخ الجديد الفكر الإسلامي يضع سلماً ، يتسلقه الفرد ، وهو يدلى بعلمه لمن دونه درجة ، ويطلب العلم ممن فوقه ، وهكذا ينطلق تيار العرفان فى الاتجاهين ومن أسفل إلى أعلى أحياناً ، عندما تقف المرأة مثلا ، وترد رأى عمر فى قضية الصداق .

ولا شك أن هذا السلم هو الذى أتاح للفكر الاسلامى الانطلاق ، من عصر الشيئية فى عهد العصر الجاهلى ، للوصول إلى تلك القمم الشامخة التى أشع منها العلم على العالم الذى كانت تخيم عليه الظلمات .

واليوم أرانا تبهرنا هذه القمم الشامخة ونتيه فى عالم الخيال لما تذكرها أقلام المستشرقين ، وإن نكرتها يعترينا مركب النقص ، وفى كلتا الحالتين تصب هذه الدراسات فى روحنا حرماناً مزدوجاً ، لا نستطيع التخلص منه إلا إذا تذكرنا السلم الذى وضعه المفهوم القرآنى ليتسلقه الفكر الانسانى حتى يصل على درجاته إلى تلك الإنجازات العلمية التى تهيمن حتى اليوم على التقدم

التكنولوجى ، مثل الحساب العشرى أو الغبارى ، والجبر والكيمياء وعدد من القوانين فى عالم الكائنات العضوية ، والطبيعة ، والفلك ، وإذا تذكرنا هذا السلم فلنعلم أنه ما زال تحت يد أو تحت قدم المجتمع الاسلامى متى أراد استخدامه من جديد ، وبحسبنا أن نقرر أن مساهمة الفكر الاسلامى فى تنمية تراث الانسانية العلمى ليست تقدر فحسب بانجازات يقرها أو ينفيها المستشرق ، حسب هواه بل تقدر بالتغيير الجذرى الذى أحدثه المفهوم القرآنى فى المناخ العقلى والبناءات العقلية ، منذ كلمة « اقرأ » .

وبالتالى ، ربما وجب علينا أن نستخلص من هذا العرض نتيجة تحدد موقفنا من إنتاج المستشرقين ، فنقول أولا إنه إنتاج لا يجوز نكران قيمته العلمية ، بل نراه أحيانا يستحق كل التقدير لما يتسم — فى بعض أصنافه مثل ما خلفه سيديو أو جوستاف لوبون أو آسين بلاثيوس — بالاضافة إلى طابعه العلمى ، بطابع أخلاقى ممتاز لا يمكن نكرانه كشهادة نزيهة من طرف شهود تعرف قيمتهم كعلماء .

ولكننا نغفل جانباً سياسياً في الموضوع إذا لم نأخذ في حسابنا أن كل ما يتجه العقل في هذا القرن العشرين الخاضع لمقاييس الفعالية ، لا يخلو من بعد عملي قد يستغل في ميدان السياسة والانتفاع حيث تصبح الأفكار ، ما سما منها وما كان تافهاً ، مسخرة لتكون وسائل إفتضاض الضمائر والعقول .

إن الكتب ، بغاليها وتافهها ، تقع بمجرد خروجها من الطبع ، وتقع أحياناً دون أن يشعر أصحابها في أيدي إخصائيين يسخرونها للصراع الفكري ، فيصيرونها أدوات للمشاغبة ، وللتحلل الأخلاقي ، أو مجرد أدوات إلهاء وتلهية ، ومما نلاحظه أن الكتاب الذي يتعلق بموضوعنا يصدر في عاصمة أوروبية في نفس الوقت مع ترجمته في عاصمة عربية .

ولا يبدو هذا التنسيق يلفت النظر حتى في البلاد التي تعاني آثار الصراع الفكري ، ودون أن تشعر هذه البلاد بالوسائل التي يستخدمها هذا الصراع ولا

بأهدافه ، بل ولا بمعنى هذه الكلمة نفسها كأنها مجرد مفردة .

ولنختبر بهذا الصدد عقلا متنوراً فسوف نراه يحوم حول جواب متردد مرتاب ، لا يستطيع صياغته بوضوح ، وإنما يتمتم : الصراع الفكرى ؟ ... آه لعلكم تتحدثون عن الوجودية ، والماركسية ، والسريالية ؟ .

وإذا ما أبرزتم أكثر معنى سؤالكم ، وقلتم : لا يا سيدى بل أتحدث عن ماركسية لا صلة لها بماركس ، وإنما هى مجرد كلمات وشعارات تلقنها لشبابنا بعض سلطات ترى فى الماركسية مجرد وسيلة للعمل ضد الاسلام ، كما أتحدث عن وجودية لا صلة لها بوجودنا على الاطلاق ، وعن سريالية لا تمت بصلة للفن ، وليست هذه الأشياء فى الواقع إلا وسائل للتغلغل فى عقول النشء الجديد تستعملها من اجل هذا الغرض دوائر لا تؤمن بها من الناحية الفلسفية والفنية والإجتماعية .

إننى أتحدث مثلا عن تلك الكتب من نوع « ديجست »

التى توزع مجاناً أو بثمن بخس على الشباب تعينه كى بتواضع ثمنها على هضم الأفكار المعروضة لضميره .

ولكن هيهات . . هيهات أن يفقه هذا الحديث « الفكر المتنور » الذى يستمع لكم ، إن على بصره لغشاوة ، ولستما ، أنتم وهو ، على نفس الصعيد ، فهو يعيش على الصعيد الفكرى ، حيث تتلقى أفكار الغير بكل تقدير ، لأن الآراء والأذواق ليست موضوع نقاش حسب زعمهم ، وربما تكونون أنتم على الصعيد الايديولوجى حيث يجب أن تطرح كل فكرة واردة تحت المجهر لينظر فى شأنها ، لأن الفكرة قد لا تكون ، على هذا الصعيد ، مجرد فكرة ينظر فيها من الزاوية الفكرية أو الفنية فحسب ، أو بالنظر إلى نوايا صاحبها فقط ، ولكن ينظر فيها من حيث نوايا من يستخدمها .

وعلى العموم فان من يستمع إليكم لا يفهمكم لأنه خالى الذهن من فكرة الصراع الفكرى ، فى العالم ، وعلى أكثر تقدير يشعر بوجود هذا الصراع فى المجال الدولى .

بين الكتلتين الكبيرتين .

يجب إذاً أن نذكر ، ولو كلمة ، على هذا المفهوم بالنسبة لموضوعنا ، حيث لا تعتبر إنتاج المستشرقين من زاوية ذاتية اصحابه ، من ناحية ميزاتهم الفكرية ونواياهم ، بل من زاوية من يستخدم إنتاجهم لغايات خاصة فى عالمنا نفسه ، لا فى عالم بعيد او خيالى .

فهذه الغايات التى عرفناها فيما سبق : « افتضاض الضمائر » يمكن تلخيصها كما يلى : إن كل فراغ إيديولوجى لا تشغله أفكارنا ، ينتظر افكاراً منافية ، معادية لنا .

فهذه هى القاعدة العامة ... والمتخصصون فى الصراع الفكرى يعرفونها كما يعرفون ابناءهم ، ولكن يجب ان نضيف إلى ذلك الى اولئك الاخصائيين ليسوا مجرد مثقفين ، يبحثون عن الحقيقة ، لأنها حقيقة ، ولكنهم يبحثون عن جانب التطبيق منها فى مجال المصلحة السياسية ، ولعلهم إذاً لا ينتظرون وقوع الفراغ الايديولوجى لاحتلاله ، بل يصنعونه هم ، وربما يشغلونه مؤقتاً بأفكار سواهم

حتى تنتهى ، فى مرحلة أولى ، عملية فصلنا عن أفكارنا بتلك الأفكار الفاصلة الوسيطة .

أجل ، إن هذا المجال ليس المجال الذى يطبق فيه المبدأ المقرر تبعاً لخط مستقيم ، مثل الهندسة ، حيث النتيجة المنطقية تتبع مباشرة التى قبلها ، فالصراع الفكرى يجرى فيه منطقه الخاص ، تبعاً لخط ملتو على العموم ، بحيث يقتضى الانتقال من مرحلة معينة إلى أخرى ، إلى مراحل وسيطة تفرض منعرجات ومنعطفات الطريق .

فالماركسية المزيفة مثلا ، التى تلقن إلى الجناح اليسارى من شبابنا ، ليست إلا مرحلة وسيطة ، تفصل طائفة من شبابنا عن الجبهة الايديولوجية الوطنية ، لأن المشرف على عملية الفصل ، لا يستطيع أن يقول لتلك الطائفة : نريد تخفيض حركة النمو فى بلادكم ، والحد منها ، هل لكم أن تعينونا على تشويه واستنقاص الأفكار والمثل التى تدعم هذه الحركة ؟ إن قولا كهذا يكون قطعاً صنفاً من الجنون والعبث لا تتصورها فى إبليس .

فما يبقى عليه إلا أن يحمل هذه الطائفة على جسر من أفكار الغير ليعبر بهم إلى الضفة الأخرى حيث نجد عصابة من ماركسيين مزيفين ، وقوميين مصطنعين ، وأفراد مقنعين على وجوههم قناع الثورة .

وبهذه العلمية الأولى تكون قد حصلت على نتيجة أولى : أن وحدة الصف المعنوية قد انفصمت في الوطن في الوقت ذاته الذى هو فى حاجة لها لمواجهة مشكلات الاستقلال الصعبة وذات الأهمية الكبرى .

حتى أن هذه المشكلات ، عوض أن ينقص ، يتزايد بقدر من تأتى العمليه بنتائجها الفكرية لدى هذا الشباب ، وبنتائجها الاجتماعية فى المجتمع ، حتى يصبح هذا الشباب يلعب دور الفرملة عندما يضع عليه أخصائيون الصراع الفكرى قدمهم ، ونقول قدمهم لأنهم يتنزهون أن يضعوا أيديهم على هذه الأجهزة .

وربما تبدو هذه الاعتبارات دون صلة بموضوع المستشرقين ، نقول أجل لها صلة ، على شرط أن تبصر

فى العملية بصورة شاملة ، لأنها فى الوقت الذى نلاحظها من جانب الشباب الذى تحقن له حقنة من سيروم الكلاب المسعورة ، فينطلق يلهث فى مجال الديماغوجية ، نراها تستمر فى الناحية الأخرى حيث يصب نفس الأخصائيون فى روح الجناح الآخر من شبابنا عقار النوم والسلوى من خالص إنتاج المستشرقين .

وهكذا تتم العملية على جناحى شبابنا : الجناح المصاب بالشلل المضطرب والجناح المصاب بالشلل المسكن ، فالبعض يصيحون ويضطربون ، والآخرون يحلمون فى بلاد تتطلب النظام والجدية ، وتتطلب الضمير المتيقظ على الدوام لمواجهة مشكلات الاستقلال .

وعلى كل هكذا نرى الإنتاج الاستشراقى فى دوره فى إطار ما نسميه الصراع الفكرى .

والآن نتساءل : كيف يجب أن يكون عملنا الفكرى فى هذا الاطار ؟ فليسمح لنا ألاَّ ندخل فى التفصيل فى هذه السطور ، وأن نتقدم فحسب بالملاحظة العامة التى

نراها تتردد ، عن حق ، فى أحاديثنا اليوم بأن الاستقلال السياسى لا يكفى ولا يشفى إن لم يدعمه الاستقلال الاقتصادى .

فهذا صحيح . . إلا أنه يجب أن نضيف له أن المجتمع الذى لا يصنع أفكاره الرئيسية ، لايمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه ، ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه ، ولن يمكن لمجتمع فى عهد التشييد أن يتشيد بالأفكار المستوردة أو المسلطة عليه من الخارج سواء كانت تمت إلى الاستشراق أو الشيوعية .

وأن فى تجربة كوبا لأكبر دليل على ذلك فإنها تشق طريقها اليوم بالخبرة التى تكتسبها فى التطبيق لا فى الكتب .

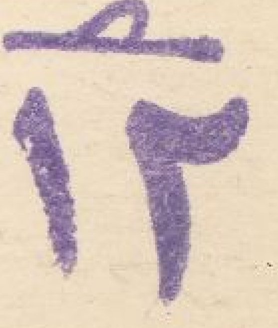
فعلينا أن نكتسب خبرتنا كذلك أى أن نحدد نحن موضوعات تأملنا وألا نسلم بأن تحدد لنا .

وبكلمة علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية ، واستقلالنا فى ميدان الأفكار حتى نحقق بذلك استقلالنا الاقتصادى والسياسى .

رقم الإيداع ٢٤٢٦/١٩٧٠

مطبعة دار البستان
شارع البستان - امام الكفارية - عابدين




١٢